الظواهر السلوكية للمنافقين في غزوتي بدر واحد (دراسة موضوعية)

د.عبد الله إبراهيم رحيم
جامعة الانبار / كلية العلوم الاسلامية
قسم التفسير وعلوم القرآن

الخبير اللغوي
أ.م.د. عامر مهدي

مستخلص البحث

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه ومن تبعهم وسار على نهجهم واتبع ملتهم إلى يوم الدين

وبعد ...

فقد تم هذا البحث بعونه تعالى ، وهذه أهم ما توصلت إليه في بحثي المتواضع هذا من نتائج استخلصها كالآتي :

اتضح لنا من خلال تعريف الكفر أن هناك علاقة قوية تربط بين الكفر والنفاق وأنهما يلتقيان في نقطة واحدة ، وأن مبدأهما هو عمل كل مايضر بالا سلام والمسلمين .

وأن هناك دوافع للنفاق هي التي تدفع الشخص أن يكون منافقا ، وكل هذه الدوافع تدور في نقطة محددة هي المصلحة الشخصية للمنافق ، وأن للمنافقين دوراً بارزاً في عملية بث الشك والريب وتثبيط العزائم لدى المؤمنين عند اقتراب موعد المعركة .

وأن النهي الرباني للمؤمنين ، بخصوص عدم اتخاذ المنافقين بطانة لهم فضلا عن اتخاذ بطانة من أهل الكفر المجاهرين بكفرهم ، كان نهيا مشددا وذلك لأن هؤلاء الذين اتخذوا مسلك النفاق منهجا لهم لايتورعون عن فعل أي شيء يؤدي إلى الضرر بالمسلمين ، وأن الامتحان الشديد الذي تعرض له المسلمون في معركة احد ، كان لأجل إظهار هؤلاء المنافقين الذين كانوا يخفون نفاقهم تحت ستار الإيمان وكشفهم أمام الناس ، وقد استخدم القران الكريم أسلوبا تربويا حكيما ، قائما بالحجج والبراهين بعد معركة احد وما رافقها من أحداث ، كانت محزنة في ظاهرها للمؤمنين ، لكن القران الكريم عالجها باسلوب حضاري حكيم أعاد الأمور إلى نصابها عند أهل الأيمان .

وختاما أسال الله تبارك وتعالى أن يجعل عملي هذا خالصا لوجهه الكريم ، وأن يحمينا ويحفظنا جميعا من مكايد شياطين الأنس والجن، من الكفرة والمنافقين وجنودهم ، وأنصارهم انه سميع مجيب .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين

ABSTRACT

In the Name of Allah, the Most Gracious, the Most Merciful

And Peace and Blessings be upon his Prophet Mohamed, his Companions and his Followers.

The researcher comes into conclusion that there is a strong connection between atheism and hypocrisy and that they both have the same principle of hurting Islam and Moslems. The study shows that the hypocrite is motivated by his private interest for the purpose of causing damage. The hypocrites played significant role in spreading doubt and deactivation in the middle of Moslems in time of war. The study shows too that the believers were banned by Allah to take the hypocrites or disbelievers as allies because those hypocrites were not hesitant in doing anything that harm Moslems.

Also, it is clear that the severe test faced by Moslems in the battle of Uhad was to unmask the hypocrites in front of the Moslems. The holy Quran used a precise educational approach supported by proofs after the seemingly sad conclusion of the battle of Uhad to show the believers the reality and intension behind this battle.

Finally, the researcher invokes Allah for bless and faithfulness with the blessings upon his Prophet and his Companions.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه أجمعين وبعد ...

فلما كان النفاق اخطر مكيدة تهدم أبنية الحق ، في عالمي الأنس والجن . وتضل وتفسد ذوي الإرادات الحرة الموضوعين في الحياة موضع الابتلاء واخطر حيلة اتخذها إبليس لإخراج ادم وزوجته من الجنة ، وجدت من واجبي أن أبين خطر هذا الوباء الذي يهدم كيان المجتمعات ، ورأيت أن اقسم البحث إلى مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة أما المقدمة فقد ذكرت فيها سبب اختياري للموضوع وخطة البحث أما التمهيد فقد قمت بالتعريف بالكفر وصوره وعلاقته بالنفاق وما هي دوافع النفاق؟

أما تقسيم المباحث فكان كالأتي .....

المبحث الأول : موقف المنافقين في غزوة بدر .

المبحث الثاني : الظواهر السلوكية للمنافقين في غزوة احد ويتضمن .

أولا : أحداث غزوة احد وما كان من المنافقين فيها .

ثانيا : موقف بعض المنافقين في غزوة احد .

ثالثا : بداية المنافقين خطوات النفاق أبان غزوة أحد ومسارعتهم في الكفر وتربية الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بشأنهم .

أما الخاتمة فقد ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها في دراستي هذه وأخيرا فقد عملت قائمة بالمصادر والمراجع التي اعتمدتها خلال كتابتي والحمد لله أولا وأخيرا........

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم تسليما كثيرا

الباحث

التمهيد

أولا : الكفر لغة :التغطية والستر الكامل ، يقال : كفر الشيء كفرا ، وكفر على الشيء كفرا ،وكفر الشيء تكفيرا إذا ستره وغطاه ، ويقال للزارع كافر أيضا . لأنه يدفن الحب في الأرض فيغطيه بالتراب تغطية كاملة ، ومنه قول الله تعالى ((كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ)) (1) .

ويقال لليل المظلم : كافر ، لأنه يستر بظلمته كل شيء (2) . وهكذا تدور الكلمة في اللغة حول معنى الستر والتغطية .

ثانيا :الكفر اصطلاحا :((هو انتهاك خاص لحرمة الربوبية إما بالجهل بوجوده أو صفاته ، أو بفعل كرمي المصحف في القاذورات والسجود للصنم ،أو التردد للكنائس ،أو جحد ما علم من الدين بالضرورة)) (3)

والقارئ لتعريف الكفر لغة واصطلاحا يلاحظ أن الجاحد المنكر لحقيقة من الحقائق التي يجب الأيمان بها في الدين ، والمنكر لحق الله عز وجل على عباده في الطاعة لأوامره ونواهيه، والإسلام له في أحكامه وشرائعه وتعاليمه ووصاياه ، هو في حقيقة الأمر ساتر للبراهين والأدلة الدامغة له ، التي أثبتت له حقائق عناصر الإيمان بها كلها أو بعضها ، والتي أثبتت له حق الله تعالى عليه في الطاعة ، أو في إفراده بالعبادة ، في كل عناصر الإسلام أو بعضها .

ولكونه ساترا هذه الأدلة والبراهين ، وبانيا إنكاره على أن الأدلة لم تكن كافية لإقناعه حتى يؤمن ويسلم ، كان من المناسب أن يسمى كافرا ، ويسمى عمله كفرا ، ثم أطلق الكفر على اعتقاد بطلان قضية ما بالحق أو بالباطل .

ثالثا : صور الكفر : الكفر له صورتان :

الصورة الأولى : تكون بإنكار أي شيء مما يجب الإيمان به في الإسلام ، وبعد العلم به وبدليل أنه حق .

الصورة الثانية : تكون برفض الاستسلام لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم

، أو رفض طاعتهما ، استكبارا ، أو عنادا ، أو شكا في حكمة الله تعالى بأوامره ونواهيه ، وهذه الصورة تظهر بكفر إبليس ظهورا واضحا ، لأنه قد كان مؤمنا بربه ، إلا أنه كان مستكبرا ، وطاعنا في حكمته ، وجاعلا الأسباب التي هي من خلقه ذات أثر على أمره ونهيه .

وتدل على هاتين الصورتين دلائل من القول أو العمل ، فتعتبر الأقوال أو الأعمال الدالة على أيه صورة منهما من المكفرات .

فمن أنكر وجود الرب الخالق الرازق الحي المميت ، أو جحد شيئا من صفاته الثابتة، أو أسمائه الثابتة فهو كافر .

ومن أشرك بربوبية الله تعالى فزعم أن شيئا في الوجود يشارك الله سبحانه وتعالى في الخلق والتدبير ، والحياة والموت والرزق ، والنفع والضر ، وغير ذلك من خصائص الله عز وجل الخالق لهذا الكون ، فهو كافر .

ومن أشرك بإلوهية الله عز وجل ، فزعم أن أحدا يستحق أن يعبد من دون الله، أو عبد مع الله إلها آخر ، أو تقرب إلى غير الله سبحانه وتعالى بالعبادة ، فهو كافر.

ومن أنكر الإسلام ، ولم يقبل به وما جاء فيه من عقائد أو شرائع أو أحكام ثابتة فهو كافر .

ومن كذب الرسول صلى الله عليه وسلم بشيء قد ثبت عنه يقينا فقد كفر بنبوته، ومن كفر بنبوة الرسول صلى الله عليه وسلم فقد كذب شهادة من أرسله ، وهكذا تتسلسل نواقض عناصر الإيمان حتى تصل إلى الجذر الأساسي وهذا هو الكفر الأكبر .

ومن رفض طاعة الله تعالى في أمر ما من أوامره ، أو نهي ما من نواهيه ، استكبارا ، أو عنادا، أو شكا في حكمته سبحانه وتعالى ، فهو كافر ككفر إبليس ، حين رفض أن يسجد لآدم عليه السلام .

ومن زعم أن حكم غير الله سبحانه وتعالى أحكم وأعدل وأصلح من حكم الله عز وجل الذي أنزله في شريعته لعباده فهو كافر .

ومن جحد وجوب ركن ما من أركان الإسلام الخمسة فهو كافر .

ومن تحاكم إلى القوانين البشرية المنافية لحكم الله تعالى وشريعته ظانا أنها أعدل من حكم الله تعالى فهو كافر .

ومن أنكر شيئا ما معلوما من الدين علما عاما يشترك به العامة والخاصة ((وهو ما يعرف بأنه معلوم من الدين بالضرورة)) فهو كافر .

إلى غير ذلك من أمور كثيرة لا مجال لحصرها .

رابعا : علاقة الكفر بالنفاق :

ينقسم المنافقون باعتبار موقعهم في الكفر إلى قسمين :

القسم الأول : منافقون لهم مذهب معين في الكفر ، كاليهودية ، والنصرانية ، والمجوسية ، والشرك ، والوثنية ، والإلحاد ، ونحو ذلك من مذاهب الكفر .

القسم الثاني : منافقون ليس لهم مذهب معين في الكفر ، وإنما هم أصحاب مصالح دنيوية ، فهم يتبعونها حيث وجدوها عند أهل اليمين تبعوهم لتحصيلها ، وان وجدوها عند أهل الشمال تبعوهم وانتسبوا إليهم لتحصيلها .

والمنافقون من هذا القسم هم منافقون مذبذبون ، لا استقرار لأنفسهم ، ولا ثبات لقلوبهم وعواطفهم وأرائهم .

إنهم لا يبطنون مذهبا معينا من مذاهب الكفر ، لكنهم إذا وجدوا مصلحة لهم من مصالح الدنيا لدى غير المسلمين ، لم يجدوا مانعا لديهم من متابعتهم سرا ، ومؤازرتهم في تحقيق أغراضهم ، ولو كان في ذلك خيانة للمسلمين ، فهم مذبذبون في مسافة وسطى بين أهل الإيمان وبين الكافرين الذين لهم مذهب معين في الكفر، فلا هم منتسبون إلى أهل الإيمان انتسابا صحيحا صادقا ، ولا هم منتسبون إلى أهل الكفر انتسابا صادقا .

وباستطاعتنا أن نقول : أن المنافق من هذا القسم له مذهب في الكفر ، هو عدم استقرار الرأي والقلب لديه ، والتأرجح بحسب أهواء نفسه وشهواتها ، فحيث مالت أهواؤه وشهوات نفسه ومصالحه من دنياه مال فكره وقلبه ورأيه .

وهؤلاء قد ذكرهم الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم في سورة النساء ، قال تعالى:

((بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً* الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً* وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً* الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللّهِ قَالُواْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُواْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً* إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً* مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاء وَلاَ إِلَى هَؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً* إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً* إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً*)) .

ومن صفات المنافقين المذبذبين بين المؤمنين والكافرين التي كشفها الله تبارك وتعالى في هذه الآيات الصفات السبع التاليات :

الصفة الأولى : أنهم يتربصون كما يتربص القناصة ما يريدون صيده ، فان كان للمؤمنين فتح من الله عز وجل على عدوهم قالوا للمؤمنين ((أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ)) [4] وان كان للكافرين نصيب من الانتصار على المسلمين لحكمة أرادها الله تبارك وتعالى قالوا للكافرين ((أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ)) [5]

الصفة الثانية : أنهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ، يراؤون المؤمنين بها ، لأنهم لايؤدونها عن عقيدة وإيمان ، وإنما يؤدوها خشية أن ينكشف نفاقهم بتركها .

الصفة الثالثة : أنهم لا يذكرون الله تعالى في كل أحوالهم إلا قليلا ، ويدخل في هذا

الذكر القليل ما يراؤون به المسلمين المؤمنين ، وما قد يكون منهم من دعاء لله تبارك وتعالى إذا تعرضوا لمطلب من مطالب دنياهم ، أو تعرضوا لمأزق حرج ، ولم يجدوا سببا ماديا ميسورا يحقق لهم مطالبهم ، أو ينقذهم من مأزقهم .

الصفة الرابعة : أنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، وسبب ذلك أنهم يبتغون عندهم العزة ، أي : القوة الغالبة ، وهم يجهلون أن القوة كلها لله عز وجل وحده لا شريك له .

الصفة الخامسة : أنهم يجالسون الكافرين ويسمعون منهم الكفر بآيات الله عز وجل والاستهزاء بها، فلا ينكرون عليهم ، ولا يفارقونهم ، ويخالفون أمر الله تبارك وتعالى في ذلك ، فقد انزل الله تبارك وتعالى على المسلمين في القران ما يتضمن :

((أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ))(6).

الصفة السادسة : أنهم بتذبذبهم بين المؤمنين والكافرين يظنون أنهم يخادعون الله عز وجل ، أي: يخادعون المؤمنين الذين هم حزب الله . وهم بظنهم هذا مخدوعون لا مخادعون ، لأن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه المبين

((إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)) (7).

الصفة السابعة : أنهم ليس لهم رأي ثابت لا في جانب الإيمان ، ولا في جانب الكفر ، بل هم مترددون ، يتقلبون في المبادئ حسب تقلب أهوائهم وشهواتهم .

خامسا : التشبيهات النبوية للمنافق :

1- شبه سيدنا رسول الله ﷺ المنافق الذي يقرأ القران بالريحانة ، ريحها طيب وطعمها مر ، وشبه المنافق الذي لا يقرأ القران بالحنظلة ، ليس لها ريح طيب وطعمها مر.

فقد روى البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه انه قال : قال رسول الله ﷺ .

((مثل المؤمن الذي يقرأ القران ويعمل به مثل الأترجة : ريحها طيب ، وطعمها

طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القران كمثل التمرة : لا ريح لها ، وطعمها طيب ، ومثل المنافق ، الذي يقرأ القران كمثل الريحانة : ريحها طيب ، وطعمها مر ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القران كمثل الحنظلة : ليس لها ريح وطعمها مر)). [8]

2- عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : قال رسول الله ﷺ
((مثل المنافق كمثل الشاة العائرة [9] بين الغنمين تعير إلى هذه مرة والى هذه مرة ، لا تدري إلى أيهما تتبع))[10]

سادسا : دوافع النفاق :

الدافع الأول : الطمع بالمنافع الدنيوية التي يرجو المنافق تحصيلها بالانتساب إلى المسلمين ، وبإعلانه قبول مبدأ الإسلام ، وإعلانه الدخول فيه .

الدافع الثاني : الخوف على نفسه أو ماله أو مصالحه الدنيوية ، إذا بقي معلنا كفره بالإسلام وجحوده لعقائده وقواعده .

الدافع الثالث : ابتغاء الكيد ضد الإسلام وجماعة المسلمين ، عن طريق إعلان الدخول في الإسلام ، ثم العمل على التخريب والهدم من داخل صفوف المسلمين المؤمنين ، مع الشعور بالأمن والسلامة وغفلة الرقباء .

الدافع الرابع : التعصب لاسم ((الإسلام)) الذي ينتسب إليه تبعا لقومه أو عشيرته ، وكراهية إعلان الخروج عليهم ، ومخالفتهم ، وهو في قلبه لا يؤمن بهذا الدين ، بل يكفر به كفرا كليا ، أو كفرا جزئيا .

المبحث الأول
موقف المنافقين في غزوة بدر

قال الله تبارك تعالى ((إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ*)) [11].

((الْمُنَافِقُونَ)) دون المنافقين لأنهم حديثو العهد بالإسلام وفيهم بعض ضعف نية قالوا عند الخروج إلى القتال وعند التقاء الصفين ،وقيل : المنافقون هم الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر[12] وقيل : المنافقون : الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر والذين في قلوبهم مرض : وهم الشاكون[13]

((الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ)) والذين لم يطمئنوا إلى الإيمان بعد وبقي في قلوبهم شبهة وقيل هم المشركون وقيل المنافقون والعطف لتغاير الوصفين ، وقيل ((فأما الذين في قلوبهم مرض)) ففيهم ثلاثة أقوال :

أحدها : أنهم قوم كانوا قد تكلموا بالإسلام بمكة فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر كرها فلما رأوا قلة المسلمين وكثرة المشركين ارتابوا ونافقوا وقالوا غر هؤلاء دينهم وهو مروي عن ابن عباس وإليه ذهب الشعبي في آخرين وعدهم مقاتل فقال كانوا سبعة قيس بن الوليد بن المغيرة وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة والحارث بن زمعة وعلي بن أمية بن خلف والعاص بن منيه بن الحجاج والوليد بن الوليد بن المغيرة والوليد بن عتبة ابن ربيعة .

والثاني : أنهم المشركون لما رأوا قلة المسلمين قالوا غر هؤلاء دينهم رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس وبه قال الحسن والثالث أنهم قوم مرتابون لم يظهروا عداوة النبي ﷺ ذكره الماوردي والمرض هاهنا الشك والإشارة بقوله هؤلاء إلى المسلمين وإنما قالوا هذا لأنهم رأوا قلة المسلمين فلم يشكوا في أن قريشا تغلبهم [14] .

((وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ)) أي يعتمد على الله عز وجل ، وقيل : جواب لهم من جهته تعالى ورد لمقالتهم[15] . ، ((فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)) غالب لا يذل من استجار به وإن قل و يفعل بحكمته البالغة ما يستبعده العقل ويعجز عن إدراكه،وقيل : أي لا يضام من التجأ إليه فإن الله عزيز منيع الجانب عظيم السلطان وحكيم في أفعاله لا يضعها إلا في مواضعها فينصر من يستحق النصر[16]، في هذا النص بيان لموقف من مواقف المنافقين ، يشاركهم فيه الذين في قلوبهم مرض دون النفاق ، وهو في قضية الإيمان مرض الشك ، وعدم ثبات الإيمان واستقراره في القلوب .

هذا الموقف يظهر عند مواجهة المؤمنين للكافرين في قتال حاد ، وتكون قوى

المؤمنين في المقاييس السببية أقل من قوى الكافرين ، كما كان الحال في غزوة بدر الكبرى ، إذ كان المؤمنون (313) وكان الكافرون قرابة الألف ، وكانت فوارق القوى العتادية والتموينية أكثر من هذه النسبة .

وفي مثل هذا الموقف لا بد أن يقول المنافقون وأشباههم ، الذين لا يؤمنون بالقوى المعنوية الإيمانية ، ولا بالقوى الغيبية التي يؤيد الله تبارك وتعالى بها عباده المؤمنين ، وينصرهم بها على أعدائه ، ويعدل بها ميزان القوى المادية التي يرجح بها الكافرون رجحانا ظاهرا ، لابد أن يقول المنافقون وأشباههم عندئذ مقالة تنسجم مع نظرتهم غير الإيمانية .

لقد قال المنافقون والذين في قلوبهم مرض : ((غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ)) وكرروا هذه المقالة بدليل الفعل المضارع في ((إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ ...)) قبل أن تنتصر القلة المؤمنة في بدر على الكثرة الكافرة ، تقديرا منهم بأن النصر سيكون للكافرين ، وأن الهزيمة والهلكة ستحلان بالمؤمنين ، وهو حكم منهم مبني على الظواهر السببية المنظورة .

فكان الرد الرباني العملي ليقلب موازين القوى لصالح المؤمنين ، ونصرهم نصرا مؤزرا عظيما على مشركي قريش ، وجيشهم المختال .

وكان الرد الرباني ألقولي عقب حكاية مقالة المنافقين والذين في قلوبهم مرض ، يتلخص بثلاثة نقاط :

الأول : بيان العقيدة الإيمانية الفكرية بالنسبة إلى هذا الموضوع وهي : أن من يتوكل على الله تبارك وتعالى صادقا في توكله ، ملتزما منهاجه وصراطه المستقيم ، تولاه الله عز وجل بتأييده ونصره ، دل على هذا قول الله تبارك وتعالى ((وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)) .

الثاني : بيان نتيجة المعركة التي ظن المنافقون والذين في قلوبهم مرض والكافرون المجاهرون بكفرهم ، قبل بدء المعركة وأثناء قيامها ، أن الهلكة ستكون فيها للقلة المؤمنة، وأن النصر سيكون للكثرة المشركة .

إذ قلب الله تبارك وتعالى موازين القوى فنصر المؤمنين على المشركين ،وأمد الله المؤمنين بجنود من الملائكة ، فقاتلوا أعداء الله عز وجل مع أوليائه بنسب من القوى

القتالية محدودة ، لا بقوى ملائكية كقوى الملائكة المرسلة لإهلاك قوم لوط.

دل على ذلك بعض ماجاء في السورة قبل هذا النص ، وهو قول الله تبارك وتعالى ((إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ*))(17) .

الثالث : بيان أن هذه العاقبة للكافرين ليست هي من قبيل المصادفة ،ولا هي حدث شاذ لا نظير له في مجرى التأريخ الإنساني ، بل هي سنة الله تبارك وتعالى في عباده .

ألم يهلك الله عز وجل آل فرعون ، والذين كفروا من قبلهم ، انتصارا لرسله ، وللمؤمنين معهم ؟ لقد أخذهم الله تبارك وتعالى بذنوبهم إن الله شديد قوي العقاب .

هذا ما تقضي به حكمة الحكيم ، وهذا هو الذي أجراه الله عز وجل في المهلكين الأولين .

وهو سنة لله دائمة ، فليتعظ بها أولو الألباب ، وليعتبر بما جرى للأولين المعتبرون ، من المخاطبين في النص ومن معاصريهم ، وممن سيأتي بعدهم .

المبحث الثاني
الظواهر السلوكية للمنافقين في غزوة أُحد

ويتضمن ..

أولا : أحداث غزوة احد وما كان من المنافقين فيها

ثانيا : موقف بعض المنافقين فيها

ثالثا : بداية بعض المنافقين خطوات النفاق أبان غزوة احد ومسارعتهم في الكفر وتربية الله رسوله ﷺ والمؤمنين بشأنهم

أولاً : أحداث غزوة احد وما كان من المنافقين فيها

قال الله تعالى ((ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ

أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ{154})) [18]

((ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً)) الأمنة والأمن سواء وقيل : الأمنة إنما تكون مع أسباب الخوف والأمن مع عدمه تفضل الله تعالى على المؤمنين بعد هذه الغموم في يوم أحد بالنعاس حتى نام أكثرهم وإنما ينعس من يأمن والخائف لا ينام روى البخاري عن أنس أن أبا طلحة قال : غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد قال : فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ويسقط وآخذه[19].

((يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ)) قرئ بالياء والتاء الياء للنعاس والتاء للأمنة والطائفة تطلق على الواحد والجماعة[20]، قال ابن عباس هم المهاجرون وعامة الأنصار ولا يقدح ذلك في عموم الإنزال للكل[21] .

((وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ)) أي أوقعتهم في الهموم والأحزان أو ما بهم إلا هم أنفسهم وقصد خلاصها من قولهم همني الشيء أي كان من همتي وقصدي[22].

وقيل يعني المنافقين : معتب بن قشير وأصحابه وكانوا خرجوا طمعا في الغنيمة وخوف المؤمنين فلم يغشهم النعاس وجعلوا يتأسفون على الحضور ويقولون الأقاويل ومعنى ((قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ)) حملتهم على الهم والهم ما هممت به يقال : أهمني الشيء أي كان من همي وأمر مهم: شديد : وأهمني الأمر أقلقني[23] .

((يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ)) أي كظن الجاهلية حيث اعتقدوا أن النبي قتل أو لا ينصر[24] .

قوله تعالى يظنون بالله غير الحق فيه أربعة أقوال ..

أحدها أنهم ظنوا أن الله لا ينصر محمدا وأصحابه رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني أنهم كذبوا بالقدر رواه الضحاك عن ابن عباس .

و **الثالث** أنهم ظنوا أن محمدا قد قتل قاله مقاتل .

والرابع ظنوا أن أمر النبي ﷺ مضمحل [25] .
((يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ)) أي ما لنا شيء من الأمر أي من أمر الخروج وإنما خرجنا كرها يدل عليه قوله تعالى إخبارا عنهم:((لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا))[26] .
وقيل هل لنا من الأمر أي من أمر الله تعالى ووعده من النصر والظفر من شئ أي من نصيب قط أو هل لنا من التدبير من شئ [27] .
((قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ)) يصرفه كيف يشاء ويدبره كيف يحب [28] وقيل اي القضاء له يفعل ما يشاء [29] وقيل أي الغلبة الحقيقية لله تعالى ولأوليائه فإن حزب الله هم الغالبون[30] وقيل أي النصر والشهادة والقدر والقضاء[31] .
((يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ)) أي من الشرك والكفر والتكذيب [32] وقيل أي من الشك والنفاق [33] .
((قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ))
أي لخرج ((الَّذِينَ كُتِبَ)) أي فرض ((عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ)) يعني في اللوح المحفوظ ((إِلَى مَضَاجِعِهِمْ)) أي مصارعهم وقيل : ((كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ)) أي فرض عليهم القتال فعبر عنه بالقتل لأنه قد يؤول إليه، وقيل : لو تخلفتم أيها المنافقون لبرزتم إلى موطن آخر غيره تصرعون فيه حتى يبتلي الله ما في الصدور ويظهره للمؤمنين والواو في قوله ((وَلِيَبْتَلِيَ)) مقحمة كقوله ((وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ))[34].
((وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ)) أي يعاملكم معاملة المختبر وقيل : ليقع منكم مشاهدة ما علمه غيبا وقيل : هو على حذف مضاف والتقدير ليبتلي أولياء الله تعالى[35] وقيل : ليمتحن ما في صدوركم من الإخلاص وليمحص ما في قلوبكم من وساوس الشيطان[36] .
وقيل وأما قوله : ((وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ)) فإنه يعني به : وليبتلي الله ما في صدوركم أيها المنافقون كنتم تبرزون من بيوتكم إلى مضاجعكم ، ويعني بقوله:((وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ)) وليختبر الله الذي في صدوركم من الشك فيميزكم – بما يظهره للمؤمنين من نفاقكم المؤمنين[37].

((وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)) والله ذو علم بالذي في صدور خلقه من خير وشر وإيمان وكفر لا يخفى عليه شيء من أمورهم سرائرها وعلانيتها وهو لجميع ذلك حافظ حتى يجازي جميعهم جزاءهم على قدر استحقاقهم [38] .

في هذا النص بيان أن الله عز وجل تدارك أهل الإيمان الصادق الثابتين والذين ثابوا إلى رشدهم بمشاعر الأمن والسكينة بعد الغم الذي غلف قلوبهم قاد إليهم مشاعر الأمن هذا في نعاس يغشى ، فيصرف الأذهان عن التفكر فيما نزل بهم من مصيبة ، وعن الوساوس المزعجة ، ويصرف النفوس عن مشاعر الخوف والقلق والاضطراب ، وعن الاهتمام بذواتهم وأهليهم ، فالنوم لا يأتي إلا مع الأمن ، أما مع الخوف والذعر والقلق وثورة الأفكار فان النوم لا يجد له سبيلا .

وفي هذا النص أيضا بيان عن طائفة المنافقين أهل الريب والشك وضعفاء الإيمان ، فدل على أنهم بقوا في الغم ، لم تأتهم الأمنة من الله عز وجل، إذ لم يسلموا أمرهم لله ومقاديره وحكمته في تصاريفه ، فاهتموا بأنفسهم ونسوا أمر الدين وغايات الجهاد والدعوة ، وواجباتهم نحو ربهم، وما تتطلب منهم طاعته ورضوانه.

وبذلك ثارت في قلوبهم الشكوك واهتاجت في نفوسهم الآلام ، فأصبحوا طائفة تراكبت عليهم عدة أمراض ..

المرض الأول : مرض نفسي ، يتجلى بشدة خوفهم ، وبتوجه كل همهم نحو أنفسهم ، ومستقبل أمرهم في المعركة وبعدها ، فهم في هم النجاة وبلوغهم مأمنهم ، وهم احتمال تعاظم أمر المشركين وسائر الكافرين ، وتضاؤل أمر المسلمين ، حتى يكون للمشركين سلطان يستأصلون به المؤمنين وكل الذين معهم ، يضاف إلى ذلك هم ما نزل بهم من جراحة .

المرض الثاني : مرض فكري اعتقادي ، فيما نزل بالمسلمين من هزيمة جعلهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، أي : جعلهم يظنون بالله ظنونا باطلة ، منافية لقواعد الإيمان بالله تبارك وتعالى ، وهذه الظنون مشابهه لظنون الجاهلية التي لا تستند إلى أساس إيماني صحيح .

المرض الثالث : ما كان من آثاره إعلانهم التلويم على الخروج إلى احد ، وأن البقاء

في المدينة كان هو الأعقل والأحزم والأصح رأيا .

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يعمل برأيهم ، إذ لم يجعل لهم من الأمر شيئا بحسب تصورهم ، مع انه صلى الله عليه وسلم استشار وعمل برأي الأكثرية ٬ وقد كان على خلاف رأيهﷺ.

المرض الرابع : إنكارهم في قلوبهم لركن الإيمان بالقضاء والقدر ، وأنه بمحابه ونعمه ، ومكارهه ومصائبه من الله عز وجل ، أو شكهم في هذا الركن ، مع ايمانهم وتعلقهم التام بالأسباب دل على ذلك قول الله تبارك وتعالى في النص ((يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا)) .

وكان لابد أيضا من رد هذه المقالة التي رددوها في نفوسهم ولم يعلنوها بألسنتهم أمام المسلمين ، وكان لابد من بيان عنصر من عناصر العقيدة الإيمانية في القضاء والقدر ، فعلم الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم في تتمة الآية ما يقوله لهم ، وتعليم الله عز وجل لرسوله ﷺ يتضمن تعليما لسائر المؤمنين ، ولاسيما أهل العلم منهم .

قال الله تعالى ((إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ*)) [39]

((إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ)) والمراد من تولى عن المشركين يوم أحد عن عمر رضي الله عنه : يعني من هرب إلى المدينة في وقت الهزيمة دون من صعد الجبل وقيل : هي في قوم بأعيانهم تخلفوا عن النبي صلى الله عليه وسلم في وقت هزيمتهم ثلاثة أيام ثم انصرفوا[40] .

((اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ)) استدعى زللهم بأن ذكرهم خطايا سلفت منهم فكرهوا الثبوت لئلا يقتلوا وهو معنى((ببعض ما كسبوا)) وقيل : ((اسْتَزَلَّهُم)) حملهم على الزلل وهو استفعل من الزلة وهي الخطيئة وقيل : زل وأزل بمعنى واحد ثم قيل : كرهوا القتال قبل إخلاص التوبة فإنما تولوا لهذا وهذا على القول الأول وعلى الثاني بمعصيتهم النبي صلى الله عليه وسلم في تركهم المركز وميلهم إلى الغنيمة[41].

وروي أن سبب فرارهم يومئذ قولان ..

أحدها أنهم سمعوا أن النبي ﷺ قد قتل فترخصوا في الفرار قاله ابن عباس وآخرون . **والثاني** أن الشيطان ذكرهم خطاياهم فكرهوا لقاء الله إلا على حال يرضونه [42] .

((أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ)) إن الله غفور للذنوب حليم لا يعاجل بعقوبة المذنب ليتوب والجملة تعليل لما قبلها على سبيل التحقيق وفي إظهار الجلالة تربية للمهابة وتأكيد للتعليل[43] ، بهذا انتقل النص إلى كشف جذور عوامل الهزيمة التي كانت من المنهزمين في أحد .

لكن الله تبارك وتعالى أكد لهم أنه تداركهم بحلمه ورحمته مرة أخرى في مراحل المعركة، فعفا عنهم ، إلا انه جل وعلا غفور حليم .

وجاء بيان العفو أولا لأنه غاية البشارتين ، فهي الأحق بالتقديم ، وجاءت الإشارة إلى أن المغفرة سبقت العفو ، من خلال الآية بذكر اسمين من أسماء الله الحسنى ، أحدهما : غفور ، والآخر : حليم . أي : حلم فغفر ثم عفا .

قال الله تعالى ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ اللّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ *)) [44] .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ)) يعني المنافقين [45] وقيل : يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله وأقروا بما جاء به محمد من عند الله لا تكونوا كمن كفر بالله وبرسوله فجحد نبوة محمد ﷺ[46] ((وَقَالُواْ لِإِخْوَانِهِمْ)) أي قالوا لإخوانه من أهل الكفر[47] ، وقيل : لأجلهم وفيهم ومعنى إخوتهم اتفاقهم في النسب أو المذهب [48] .

((إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ)) أي سافروا للتجارة ونحوها[49] ، ((أَوْ كَانُواْ غُزًّى)) أو كان خروجهم من بلادهم غزاة فهلكوا فماتوا في سفرهم أو قتلوا في غزوهم [50] ، ((لِيَجْعَلَ اللّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ)) أي ندامة ((فِي قُلُوبِهِمْ)) والحسرة الاهتمام على فائت لم يقدر بلوغه [51] وقيل : غما [52] وقيل : ليكون لهم عدوا وحزنا أي قالوا ذلك واعتقدوه ليكون حسرة في قلوبهم والمراد بالتعليل المذكور بيان عدم ترتب فائدة ما على ذلك أصلا وقيل هو تعليل للنهى بمعنى لا تكونوا مثلهم في النطق بذلك القول واعتقاده ليجعله الله تعالى حسرة في قلوبهم خاصة ويصون منها قلوبكم فذلك

كما مر إشارة إلى ما دل عليه قولهم من الاعتقاد ويجوز أن يكون إشارة إلى ما دل عليه النهى أي لا تكونوا مثلهم ليجعل الله انتفاء كونكم مثلهم حسرة في قلوبهم فإن مضادتكم لهم والاعتقاد مما يغمهم ويغيظهم [53] ، ((وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)) إن الله يرى ما تعملون من خير وشر فاتقوه أيها المؤمنون إنه محص ذلك كله حتى يجازي كل عامل بعمله على قدر استحقاقه[54]. وقيل أنه تهديد للمؤمنين على أن يماثلوهم وقرئ بالياء على أنه وعيد للذين كفروا وما يعملون عام متناول لقولهم المذكور ولمنشئه الذي هو اعتقادهم ولما ترتب على ذلك من الأعمال ولذلك تعرض لعنوان البصر لا لعنوان السمع وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لتربية المهابة وإلقاء الروعة والمبالغة في التهديد والتشديد في الوعيد[55].

لقد اقتضت التربية الربانية بيان الحقيقة من كل أطرافها حول هذا الموضوع ، **وهي تشتمل على خمسة أمور :**

الأمر الأول : بيان أن العقوبة القدرية التي تأتي نتيجة طبيعية بمقتضى سنة الله في خلقه للكفر ومفهوماته ، أن يذوق الكافرون الآم الحسرة ، على ما فات من المحاب ، عند كل مصيبة تنزل فيهم .

وذلك لأنهم يعتقدون أنهم لو فعلوا كذا ، ولم يفعلوا كذا ، لما نزلت بهم هذه المصيبة .

وقد دل على هذه العقوبة قول الله تبارك وتعالى في النص ((لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ)) .

بخلاف أحوال المؤمنين بالله تبارك وتعالى وقضائه وقدره ، فإنهم إذا نزلت بهم مصيبة ما ولو كانوا الكاسبين لأسبابها ، لم يذوقوا الآم الحسرة على ما كان منهم ، إلا أن تكون المصيبة نتيجة معصية لله عز وجل ، وعندئذ يتحسرون لأنهم عصوا ، لا لأنهم قد نزلت بهم المصيبة ، إذ يعلمون أنها مكفرة للخطيئة ، وهي لخيرهم تأديبا وتربية وجزاء .

الأمر الثاني : بيان أن الحياة والموت من الأمور التي يتولاها القضاء والقدر استقلالا ، دون أن يكون للأسباب تأثيرات حقيقية فيها ، وان كانت لها تأثيرات صورية ، فحين لا يكون لله تبارك وتعالى قضاء وقدر بحياة أو موت ، لم تفعل الأسباب شيئا إن وجدت

أو تتدخل المقادير الربانية بصرف الأسباب ، أو إقامة الحواجز دونها .

وقد دل على هذا الأمر قول الله تبارك وتعالى في هذا النص ((وَاللّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)) .

الأمر الثالث : بيان أن أعمال ذوي الإرادات الحرة ، إذ يستخدمون ماسخر الله تبارك وتعالى لهم في أنفسهم وفي الكون من حولهم تسخيرا مصحوبا بالإمداد والعلم والمشاهدة والمراقبة الدائمة ، هل يبقي لهم إمداده وتسخيره وتيسير الأسباب إذا لم يكن له فيما يتحقق بهذه الأسباب ضمن قوانينها التي جعلها هو لها قضاء وقدر .

وقد دل على ذلك قول الله تبارك وتعالى في النص ((وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ))

الأمر الرابع : وهو مبني على ما سبق ، فمن قتل غازيا في سبيل الله عز وجل ، أو مات بحادث ما، وهو مسافر في سبيل الله تبارك وتعالى وابتغاء مرضاته ، فأجره ثابت عند الله عز وجل ولو كان القضاء الرباني من الأمور النافذة لا محالة ، قتلا أو موتا .

وثواب من قتل أو مات في سبيل الله عز وجل يشمل عنصريين :

الأول : مغفرة من الله تبارك وتعالى لسوابق الذنوب والآثام .

الثاني : رحمة من الله تبارك وتعالى في دار رحمته ، وهي جنات النعيم . وقد دل على ذلك قول الله تبارك وتعالى((وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ))[56] .

الأمر الخامس : بيان أن الجزاء الرباني الأوفى على الصالحات في الحياة الدنيا ، التي يقدمها المؤمنون الصادقون ، إنما يكون بعد هذه الحياة الدنيا ، يوم يحشر الناس إلى ربهم ، وقد دل على ذلك قول الله تبارك وتعالى ((وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى الله تُحْشَرُونَ))[57] .

ثانيا : موقف بعض المنافقين فيها

قال الله تعالى ((وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ*))(58) .

((وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ)) أي ليميز وقيل ليرى وقيل : ليظهر إيمان المؤمنين بثبوتهم في القتال وليظهر كفر المنافقين بإظهارهم الشماتة فيعلمون ذلك(59) .

((نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ)) يعني تعالى ذكره بذلك عبد الله بن أبي أبن سلول المنافق وأصحابه الذين رجعوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه حين سار نبي الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين بأحد لقتالهم فقال لهم المسلمون : تعالوا قاتلوا المشركين معنا أو ادفعوا بتكثيركم سوادنا ! فقالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لسرنا معكم إليهم ولكنا معكم عليهم ولكن لا نرى أن يكون بينكم وبين القوم فقال ! فابدوا من نفاق أنفسهم ما كانوا يكتمونه(60).

((أَوِ ادْفَعُواْ)) واختلف الناس في معنى قوله : ((أَوِ ادْفَعُواْ)) فقال السدي وابن جريج وغيرهما:كثروا سوادنا وإن لم تقاتلوا معنا فيكون ذلك دفعا وقمعا للعدو فإن السواد إذا كثر حصل دفع العدو وقال أنس بن مالك : رأيت يوم القادسية عبد الله بن أم مكتوم الأعمى وعليه درع يجر أطرافها وبيده راية سوداء فقيل له : أليس قد أنزل الهل عذرك ؟ قال : بلى ! ولكني أكثر سواد المسلمين بنفسي وروي عنه أنه قال : فكيف بسوادي في سبيل الله ! وقال أبو عون الأنصاري معنى ((أَوِ ادْفَعُواْ)) رابطوا وهذا قريب من الأول ولا محالة أن المرابط مدافع لأنه لولا مكان المرابطين في الثغور لجاءها العدو وذهب قوم من المفسرين إلى أن قول عبد الله بن عمرو ((أَوِ ادْفَعُواْ)) إنما هو استدعاء إلى القتال حمية لأنه استدعاهم إلى القتال في سبيل الله وهي أن تكون كلمة الله هي العليا فلما رأى أنهم ليسوا على ذلك عرض عليهم الوجه الذي يحشمهم ويبعث الأنفة أي أو قاتلوا دفاعا عن الحوزة ألا ترى أن قزمان قال : والله ما قاتلت إلا عن أحساب قومي وألا ترى أن بعض الأنصار قال يوم أحد لما رأى

قريشا قد أرسلت الظهر في زروع قناة أترعى زروع بني قيلة ولما نضارب ؟ والمعنى إن لم تقاتلوا في سبيل الله فقاتلوا دفعا عن أنفسكم وحريمكم[61] .

((هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ)) أي بينوا حالهم وهتكوا أستارهم وكشفوا عن نفاقهم لمن كان يظن أنهم مسلمون فصاروا أقرب إلى الكفر في ظاهر الحال وإن كانوا كافرين على التحقيق [62] .

((يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ)) يظهرون خلا ف ما يضمرون وإضافة القول إلى الأفواه تأكيد وتصوير [63] .

((وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ)) زيادة تحقيق لكفرهم ونفاقهم ببيان اشتغال قلوبهم بما يخالف أقوالهم من فنون الشر والفساد إثر بيان خلوهم عما يوافقها والمراد أعلم من المؤمنين لأنه تعالى يعلمه مفصلا بعلم واجب والمؤمنون يعلمونه مجملا بأمارات[64] ، هذا الكشف يجعل المعلوم المخفي في القلوب وسرائر النفوس معلوما في الأقوال والأعمال وسائر الأمارات والعلامات ، وعلم الله السابق لحدوث المعلوم ، والمطابق لما سيحدث يصير علما مطابقا لما حدث فعلا ، وعلى هذا المعنى جاء في النصوص : ليعلم الله ، ونحو ذلك .

ونلاحظ في النص أن الله تبارك وتعالى بعد توجيهه المؤمنين لمنهج التبصر بالأمارات والعلامات الدالات على نفاق المنافقين للحذر منهم ، أبان أن هؤلاء الذين قالوا للمؤمنين ((لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ)) هم كذابون ، منافقون ، يقولون بأفواههم ماليس في قلوبهم ، فقال تعالى ((يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ)) .

أي : أنهم لا يريدون نصرة الرسول ﷺ ولا المؤمنين معه مطلقا ، حين قالوا ((لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ)).

فقد علموا أنه سيكون قتال ، وأنهم لو نصروا إخوانهم لامكن انتصارهم على عدوهم ،ومع ذلك قعد من قعد منهم فلم يخرج ، وانخذل من انخذل منهم من بعض الطريق . لكن الله عليم بما يكتمون في صدورهم ، لأنه سبحانه وتعالى عليم بكل شيء ، ومنه ما توسوس به النفوس ، وتخفيه القلوب.

قال الله تعالى ((الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{168})) [65]

((الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ)) معناه لأجل إخوانهم وهم الشهداء المقتولون من الخزرج وهم إخوة نسب ومجاورة لا إخوة الدين أي قالوا لهؤلاء الشهداء : لو قعدوا أي بالمدينة ما قتلوا وقيل : قال عبد الله بن أبي وأصحابه لإخوانهم أي لأشكالهم من المنافقين : لو أطاعونا هؤلاء الذين قتلوا لما قتلوا[66] ((وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا)) يعني : لو أطاعنا من قتل بأحد من إخواننا وعشائرنا ((مَا قُتِلُوا)) يعني : ما قتلوا هنالك[67]. ((قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)) أي قل لهم يا محمد : إن صدقتم فادفعوا الموت عن أنفسكم والدرء الدفع بين بهذا أن الحذر لا ينفع من القدر وأن المقتول يقتل بأجله وما علم الله وأخبر به كائن لا محالة[68] .

ادعاء المنافقين في هذا النص ادعاء كاذب وباطل وهو مخالف للواقع والحقيقة ، وهم غير صادقين فيه ، لأن الموت قضاء رباني محتوم للناس جميعا ، ولكل حي أجل لا يتقدم ولا يتأخر ، ومن جاء أجله ذاق الموت عنده لا محالة ، سواء أتعرض لسبب القتل أو لن يتعرض له ، وان كان على الإنسان أن يأخذ الحيطة لنفسه فلا يتعرض لأسباب القتل دون إذن أو تكليف ديني من الله عز وجل ، وإلا كان عاصيا ، بدليل نصوص أخرى .

فان كنتم صادقين في أن من حمى نفسه من أسباب الموت الظاهرة التي تعرفونها وتتقونها ، لم يمت في أجله المقدر له ، فادرؤوا عن أنفسكم الموت ، بحماية أنفسكم من أسبابه ، ولن تستطيعوا ذلك . وهذا الجواب قد تضمن بيانا لبعض الحقيقة حول قضية الموت . وبعض آخر من هذه الحقيقة قد تضمنه جواب سابق في الآية (154) من السورة نفسها ، وهو قول الله تبارك وتعالى فيها ((قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ.............)) .

ثالثا: بداية بعض المنافقين خطوات النفاق أبان غزوة احد ومسارعتهم في الكفر وتربية الله عز وجل رسوله ﷺ والمؤمنين بشأنهم

قال الله تعالى ((وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ*))[69]

((وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ)) أي لا يحزنك يا محمد كفر الذين يسارعون في الكفر مرتدين على أعقابهم من أهل النفاق فإنهم لن يضروا الله بمسارعتهم في الكفر شيئا وكما أن مسارعتهم لو سارعوا إلى الإيمان لم تكن بنافعته كذلك مسارعتهم إلى الكفر غير ضارته [70] وذلك من شدة حرصه على الناس كان يحزنه مبادرة الكفار إلى المخالفة والعناد والشقاق فقال تعالى : لا يحزنك ذلك [71] ، ((إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئاً)) بمسارعتهم في الكفر [72] وقيل : بفعلهم وإنما يضرون أنفسهم [73] وقيل : أي لا ينقصون من ملك الله وسلطانه شيئا يعني لا ينقص بكفرهم[74]، ((يُرِيدُ اللّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)) أي نصيبا من الثواب في الآخرة وهو يدل على تمادي طغيانهم وموتهم على الكفر وفي ذكر الإرادة إشعار بأن كفرهم بلغ الغاية حتى أراد أرحم الراحمين أن لا يكون لهم حظ من رحمته وإن مسارعتهم في الكفر لأنه تعالى لم يرد أن يكون لهم حظ في الآخرة ((وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)) مع الحرمان عن الثواب[75] .

مواقف المنافقين وأهل الريب والشك وضعفاء الإيمان في معركة أحد وما بعدها ، قد آلمت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفريقا من المؤمنين الصادقين ، فاقتضت الحكمة العلاجية التربوية ، إنزال بيان خاص لسيدنا رسول الله ﷺ ، ويستفيد منه سائر المؤمنين تبعا ، مع مافيه من توجيه غير مباشر لأصحاب هذه المواقف ، فقال الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ :

((وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ*)) .

في هذا النص قضيتان :

القضية الأولى : متابعة حركة تدرج الذين سلكوا مسلك النفاق ، وذلك لأنهم بعد أن خطوا الخطوات الأولى في النفاق ، تبعا للذين كانوا منافقين من قبل ، أخذت خطواتهم تتسارع في طريق الكفر، ويخشى أن يصلوا قريبا إلى حضيضه الوخيم.

القضية الثانية : متابعة تربوية من الله عز وجل لسيدنا رسول الله ﷺ تبين له أنه لا ينبغي له أن يحزن إذا وجد بعض أتباعه ارتدوا منافقين ، بعد إن كانوا في ظاهر حالهم مؤمنين ، فأخذوا يسارعون في طريق الكفر إلى شقائهم ، نظرا إلى أنهم سائرون في مسيرتهم المرتدة إلى مواقع الكفر الخالص في الباطن .

وهذا الحزن يحركه في سيدنا رسول الله ﷺ أمران :

الأمر الأول : رحمته صلوات ربي وسلامه عليه بهم ، وحرصه عليهم ، وخوفه من سوءِ المصير الذي هم إليه سائرون فصائرون .

الأمر الثاني : تخوفه ﷺ من تناقص أنصار هذا الدين ، ومن حصول الضرر في مسيرة الدعوة الربانية .

وقد عالجت تربية الله عزّ وجل لسيدنا رسول الله ﷺ هذين الأمرين ببيان لكل منهما بما جاء في النص المذكور .

قال الله تعالى ((إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئاً وَلهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *)) [76]

((إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئاً)) يعني بذلك جل ثناؤه المنافقين الذين تقدم إلى نبيه ﷺ فيهم : أن لا يحزنه مسارعتهم إلى الكفر فقال لنبيه ﷺ : إن هؤلاء الذين ابتاعوا الكفر بإيمانهم فارتدوا عن إيمانهم بعد دخولهم فيه ورضوا بالكفر بالله وبرسوله عوضا من الإيمان لن يضروا الله بكفرهم وارتدادهم عز إيمانهم شيئا بل إنما يضرون بذلك أنفسهم بإيجابهم بذلك لها من عقاب الله ما لا قبل لها به[77] ، ((وَلهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)) تكرير للتأكيد أو تعميم للكفرة بعد تخصيص من نافق من المتخلفين أو ارتد من العرب[78] ..

ومن هنا نلاحظ أن حركة النفاق قد تتابعت خلال أحداث غزوة احد وبعدها ضمن خط بياني اشتمل على ثلاثة مراحل :

المرحلة الأولى : بدؤهم السير في طريق النفاق .

دل على ذلك قول الله تبارك وتعالى في النص السابق : ((وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ

أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ*))

المرحلة الثانية : مسارعتهم في طريق الكفر متجهين شطر غايته ، بعد انزلاقهم في المرحلة الأولى.

دل على ذلك قول الله تبارك وتعالى في الآية السابقة ((وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ*)) .

المرحلة الثالثة : بلوغهم إلى غاية الكفر ، واستقرارهم في موقعه ، اشتروا الكفر بالإيمان .

دل على ذلك قول الله تبارك وتعالى ((إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَن يَضُرُّواْ اللهَ شَيْئاً وَلهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ*)) .

قال الله تعالى ((وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ*))(79)

((وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ)) الإملاء طول العمر ورغد العيش والمعنى: لا يحسبن هؤلاء الذين يخوفون المسلمين فإن الله قادر على إهلاكهم وإنما يطول أعمارهم ليعملوا بالمعاصي لا لأنه خير لهم ويقال : ((أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ)) بما أصابوا من الظفر يوم أحد لم يكن ذلك خيرا لأنفسهم وإنما كان ذلك ليزدادوا عقوبة وروي عن ابن مسعود أنه قال : ما من أحد بر ولا فاجر إلا والموت خير له لأنه إن كان برا فقد قال الله تعالى : ((وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ))(80) وإن كان فاجرا فقد قال الله : ((إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً))(81) ، إنما نؤخر آجالهم فنطيلها ليزدادوا إثما يقول : ليكتسبوا المعاصي فتزداد آثامهم وتكثر(82) ، وقيل استئناف بما هو العلة للحكم قبلها وما كافة واللام لام الإرادة وعند المعتزلة لام العاقبة وقرء ((أَنَّمَا)) بالفتح هنا وبكسر الأولى ولا يحسبن بالياء على معنى ((وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ)) أن إملاءنا لهم لازدياد الإثم بل للتوبة والدخول في الإيمان و ((أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ))اعتراض معناه أن إملاءنا خير لهم أن انتبهوا وتداركوا فيه ما فرط منكم(83) .

((وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ)) قيل : لما تضمن الإملاء التمتع بطيبات الدنيا وزينتها وذلك

مما يستدعي التعزز والتجبر وصف عذابهم بالإهانة ليكون جزاؤهم جزاء وفاقا [84] ، بعد أن تحقق هؤلاء الذين نافقوا بالكفر الخاص ، إذ وصلوا إلى غاية الطريق التي انزلقوا في مبادئها أولا ، ثم سارعوا منحدرين في أوسطها ، حتى اشتروا الكفر بالإيمان في غايتها ، واستقروا في موقع الكفر ، وأبقوا ظاهر الانتماء إلى الإسلام نفاقا، تحول الحديث عنهم إلى كلام عن كافرين.

وهنا يكشف الله عز وجل طرفا من حكمته من إمهالهم، وعد المسارعة في الانتقام منهم ، فالله عز وجل يملي لهم ليتمادوا في ممارسات الكفر، فيزدادوا إثما، وإذا ازدادوا إثما كانت إدانتهم بالكفر أقوى أدلة وأكثر براهين، ولم يكن لهم يوم الدين مايعتذرون به، من أن ما كان منهم قد كان أثر طيش عارض، أو انفعال طارئ، أو جهالة كان من الممكن أن يصحوا منها، ولو تركت لهم فرصة التوبة والرجعة.

فمن أمهل مع الإنذار إمهالا كافيا للتوبة ، وقد فتحت له أبوابها ، ثم ظل مكابرا معاندا ، يزداد إثما وطغيانا ، فقد اسقط كل أعذاره ، وكل تعللاته ، واستحق العقاب بلا شفقة ولا رحمة ، لأنه لم يشفق هو على نفسه ، ولم يرحمها .

فقال الله تبارك وتعالى في محكم كتابه الكريم ((وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ))

قال الله تعالى ((مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ{179})) [85] .

((مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ)) واختلفوا من المخاطب بالآية على أقوال فقال ابن عباس و الضحاك و مقاتل و الكلبي وأكثر المفسرين : الخطاب للكفار والمنافقين أي : ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه من الكفر والنفاق وعداوة النبي صلى الله عليه وسلم قال الكلبي : إن قريشا من أهل مكة قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم وقيل : هو خطاب للمشركين والمراد بالمؤمنين في قوله ((لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ)) من في الأصلاب والأرحام ممن يؤمن أي ما كان الله ليذر أولادكم الذين حكم لهم بالإيمان على ما أنتم عليه من الشرك حتى يفرق بينكم وبينهم وعلى

هذا ((وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ)) كلام مستأنف وهو قول ابن عباس وأكثر المفسرين وقيل : الخطاب للمؤمنين حتى يميز بينكم بالمحنة والتكليف فتعرفوا المنافق الخبيث والمؤمن الطيب وقد ميز يوم أحد بين الفريقين وهذا قول أكثر أهل المعاني(86) ، ((حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)) يعني بذلك : ((حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ)) وهو المنافق المستسر للكفر ((مِنَ الطَّيِّبِ)) وهو المؤمن المخلص الصادق الإيمان بالمحن والاختبار كما ميز بينهم يوم أحد عند لقاء العدو عند خروجهم إليهم (87) ، ((وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ)) أي : يا معشر المؤمنين أي ما كان الله ليعين لكم المنافقين حتى تعرفوهم ولكن يظهر ذلك لكم بالتكليف والمحنة وقد ظهر ذلك في يوم أحد فإن المنافقين تخلفوا وأظهروا الشماتة فما كنتم تعرفون هذا الغيب قبل هذا فالآن قد أطلع الله محمدا عليه الصلاة والسلام وصحبه على ذلك(88) .

((وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ)) أي يختار ((مِن رُّسُلِهِ)) لإطلاع غيبه من يشاء(89) وقيل ولكن الله يجتبي لرسالته من يشاء فيوحي إليه ويخبره ببعض المغيبات أو ينصب له ما يدل عليها (90) وقيل : يخلصهم لنفسه (91) ، ((فَآمِنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ)) يعني لا تشتغلوا بما لا يعنيكم واشتغلوا بما يعنيكم وهو الإيمان ((فَآمِنُوا)) أي صدقوا أي عليكم التصديق لا التشوف إلى اطلاع الغيب(92) ، ((وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ)) وقيل : يعني جل ثناؤه بقوله : ((وَإِن تُؤْمِنُواْ)) وإن تصدقوا من اجتبيته من رسلي بعلمي وأطلعته على المنافقين منكم ((وَتَتَّقُواْ)) ربكم بطاعته فيما أمركم به نبيكم محمد ﷺ وفيما نهاكم عنه فلكم أجر عظيم يقول : فلكم بذلك من إيمانكم واتقائكم ربكم ثواب عظيم(93) .

بعد ذلك التفت النص إلى المؤمنين ليبين الله تبارك وتعالى لهم فيه حكمة حول تساؤلات قد تقع في نفوسهم ، ولو لم ينطقوا بها في ألسنتهم .

ومن هذه التساؤلات ما يلي :

التساؤل الأول : لماذا أنزل الله تبارك وتعالى بنا هذه المصيبة العامة التي شملت المحسنين والمسيئين يوم احد ؟

وجاء الجواب على هذا التساؤل النفسي في قول الله عز وجل في النص :

((مَّا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)) .
أي : ليس من شأن الله تبارك وتعالى ولا من شأن حكمته عز وجل في مسيرة أوليائه حاملي رسالته يتركهم وقد اختلط بينهم الأخباث المنافقون اختلاطا يجعل جماهير المؤمنين لا يميزون بسببه المنافق الخبيث من المؤمن الطيب .

فهذا الاختلاط من شأنه في نظام الأسباب والمسببات أن لايمكن رسالة الله تبارك وتعالى أن تبلغ مداها الظافر ، ولا يمكن المؤمنين الصادقين من الظهور في الأرض على أعداءهم الكثيرين ، لأن المنافقين سيتابعون عبثهم من داخل صفوف المؤمنين الصادقين ويتابعون مكايدهم ، حتى يحتلوا مراكز القيادة ، فيعطفوا برسالة الإسلام عن صراط الله عز وجل المستقيم ، ويسلكوا بجماهير المؤمنين في مسالك شيطانية خبيثة ، وعندئذ تسقط المسيرة في براثن الشياطين، فسلامة مسيرة الدعوة الربانية ، وتنامي الأمة الإسلامية ، يقتضيان هذا التميز .

التساؤل الثاني : إذا كانت الغاية تمييز المنافقين الأخباث المندسين في صفوف المؤمنين من المؤمنين الصادقين ، لتحذير المؤمنين من مكايدهم ، أما كان من الممكن أن ينور الله عز وجل بصائر المؤمنين فيكشف لهم بذلك المنافقين ، دون ابتلائهم بامتحان عام يتعرضون فيه للمصائب العامة ؟ .

وجاب هذا التساؤل النفسي في قول الله تبارك وتعالى في النص :

((وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ)) أي ليس من سنة الله عز وجل ولا من حكمته أن يختصكم بالاطلاع على بواطن قلوب المنافقين ، فتحذروهم بناء على علمكم بهم . أن ماتكنه القلوب هو من دوائر الغيب الذي حجبه الله تبارك وتعالى عن الناس بحسب سنته الثابتة .هذه القاعدة والسنة الثابته ، ولكن قد يجتبي الله عز وجل من رسله من يشاء فيطلعهم على ما يشاء مما هو غيب عن الناس بحسب سنته ، لحكمة من حكمه الجليلة تبارك وتعالى .

وبيان لهذا الاستثناء قال الله عز وجل في النص :

((وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ))

ومعنى ذلك أنه يسنوجب على المؤمنين الصادقين التسليم الكامل فيما جرت به مقاديره ، ويستوجب الثقة التامة بأنه هو الأحكم 0 والأصلح ، فهو سبحانه وتعالى العليم الحكيم ، الذي لاتنفك حكمته العظيمة عما تجري به مقاديره ، وان جاءت على خلاف ما يهوى المؤمنون الصادقون .

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه ومن تبعهم وسار على نهجهم واتبع ملتهم إلى يوم الدين وبعد ...
فقد تم هذا البحث بعونه تعالى ، وهذه أهم ما توصلت إليه في بحثي المتواضع هذا من نتائج استخلصها كالآتي :

1. اتضح لنا من خلال تعريف الكفر أن هناك علاقة قوية تربط بين الكفر والنفاق وأنهما يلتقيان في نقطة واحدة ، وأن مبدأهما هو عمل كل مايضر بالا سلام والمسلمين .
2. وتبين لنا أن هناك دوافع للنفاق هي التي تدفع الشخص أن يكون منافقا ، وكل هذه الدوافع تدور في نقطة محددة هي المصلحة الشخصية للمنافق .
3. وتبين لنا أن للمنافقين دوراً بارزاً في عملية بث الشك والريب وتثبيط العزائم لدى المؤمنين عند اقتراب موعد المعركة .
4. وأن النهي الرباني للمؤمنين ، بخصوص عدم اتخاذ المنافقين بطانة لهم فضلا عن اتخاذ بطانة من أهل الكفر المجاهرين بكفرهم ، كان نهيا مشددا وذلك لأن هؤلاء الذين اتخذوا مسلك النفاق منهجا لهم لا يتورعون عن فعل أي شيء يؤدي إلى الضرر بالمسلمين .
5. وأن الامتحان الشديد الذي تعرض له المسلمون في معركة احد ، كان لأجل إظهار هؤلاء المنافقين الذين كانوا يخفون نفاقهم تحت ستار الإيمان وكشفهم أمام الناس .
6. وقد استخدم القران الكريم أسلوبا تربويا حكيما ، قائما بالحجج والبراهين بعد معركة احد وما رافقها من أحداث ، كانت محزنة في ظاهرها للمؤمنين ، لكن القران الكريم عالجها باسلوب حضاري حكيم أعاد الأمور إلى نصابها عند أهل الأيمان .

وختاما أسال الله تبارك وتعالى أن يجعل عملي هذا خالصا لوجهه الكريم ، وأن يحمينا ويحفظنا جميعا من مكايد شياطين الأنس والجن، من الكفرة والمنافقين وجنودهم ، وأنصارهم انه سميع مجيب .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين

الهوامش

1) سورة الحديد /20
2) ينظر : لسان العرب لابن منظور 5/144 ، القاموس المحيط 1/605 ، ناج العروس 1/3458 ، المصباح المنير 2/535 ، مادة (كفر).
3) الذخيرة 28/12 ، ينظر : أحكام أهل الذمة 1156/2 .
4) سورة النساء / 141 .
5) سورة النساء /141 .
6) سورة النساء /140 .
7) سورة النساء /142 .
8) صحيح البخاري 5 /2070
9) العائرة من الشاة : المتحيرة المترددة بين قطيعين لا تدري أيهما تتبع ينظر : عمدة القاري شرح صحيح البخاري 16/69 .
10) صحيح مسلم 4/2146 ، سنن النسائي 8/124 .
11) سورة الأنفال / 49 .
12) تفسير القرطبي 4/26.
13) فتح القدير للشوكاني 2/ 49 .
14) تفسير البيضاوي 1/114 ، زاد المسير 3/ 367_ 368 .
15) تفسير القرطبي 4/26 ينظر : تفسير البيضاوي 1/114، تفسير ابن كثير 2/419 .
16) ينظر : الكشاف 2/217 ، التفسير الكبير 15/141 _ 142 ،

تفسير البيضاوي 114/1 ، تفسير ابن كثير2/419 ، تفسير أبي السعود 4/26 .
17) سورة الأنفال /12 .
18) سورة آل عمران /154 .
19) ينظر: تفسير البغوي 1/121 ، تفسير القرطبي 4/235 ، تفسير البيضاوي 1/104 ، تفسير ابن كثير 1/554 .
20) المصادر نفسها .
21) تفسير أبي السعود 2/ 101 .
22) ينظر: تفسير البيضاوي 1/104 ، تفسير النسفي 1/185 ، تفسير أبي السعود 2/101 ، روح المعاني 4/94 .
23) تفسير القرطبي 4/235 ، تفسير ابن كثير 1/554 ،
24) تفسير البغوي 1/121، تفسير الجلالين 1/86 .
25) زاد المسير 1/481.
26) سورة آل عمران /154 ، تفسير القرطبي 4/235 .
27) تفسير أبي السعود 2/101، ينظر روح المعاني 4/94 .
28) تفسير الطبري 3/482.
29) تفسير الجلالين 1/86 .
30) تفسير البيضاوي 1/104.
31) الوجيز للواحدي 1/238 .
32) تفسير الطبري 235/3 ، تفسير القرطبي 4/235 .
33) الوجيز للواحدي 1/238 .
34) تفسير القرطبي 4/235 ، تفسير أبي السعود 2/102 .
35) تفسير القرطبي 4/235 .
36) تفسير النسفي 1/186 ينظر : فتح القدير 1/589 .
37) تفسير الطبري 3/482 .
38) تفسير الطبري 3/482، تفسير الجلالين 1/86 .
39) سورة آل عمران /155 .
40) تفسير الطبري 3/488 ، تفسير القرطبي 4/237 .
41) تفسير القرطبي 4/237 ، تفسير الجلالين 1/87.
42) زاد المسير 1/384 .

43) تفسير أبي السعود 2/103 ، ينظر : روح المعاني 4/99 .
44) سورة آل عمران /156 .
45) زاد المسير 1/484 ، تفسير القرطبي 4/239 .
46) تفسير الطبري 3/289 .
47) المصدر نفسه .
48) تفسير البيضاوي 1/106 ، ينظر فتح القدير 1/592 .
49) تفسير البيضاوي 1/106 ،فتح القدير 1/592 .
50) تفسير الطبري 3/289 ، الوجيز 1/239.
51) تفسير القرطبي 3/239 .
52) تفسير البغوي 1/123 .
53) تفسير أبي السعود 2/104 .
54) تفسير الطبري 3/289 .
55) تفسير أبي السعود 2/104 .
56) سورة آل عمران /157 .
57) سورة آل عمران /158 .
58) سورة آل عمران /167 .
59) الوجيز 1/242 ، تفسير القرطبي 4/285 ، تفسير الجلالين 1/89 .
60) تفسير الطبري 3/510، تفسير القرطبي 4/285 .
61) تفسير القرطبي 4/285 ، ينظر : روح المعاني 4/118 .
62) زاد المسير 1/498، تفسير القرطبي 4/285.
63) تفسير الطبري 3/510 ، تفسير البغوي 1/130، تفسير البيضاوي 1/112 .
64) ينظر : روح المعاني 4/120 .
65) سورة آل عمران / 168 .
66) الوجيز 1/242، تفسير القرطبي 4/259 ، تفسير البيضاوي 1/113 ، ينظر فتح القدير 1/598 .
67) تفسير الطبري 2/511، تفسير أبي السعود 2/111 .
68) تفسير القرطبي 4/259 ، ينظر: فتح القدير 1/598 .
69) سورة آل عمران /176 .
70) تفسير الطبري 3/526 .

71) تفسير ابن كثير 1/573 .
72) تفسير البغوي 1/139.
73) تفسير ابن كثير 1/573 ، تفسير الجلالين 1/91 .
74) تفسير القرطبي 4/77.
75) تفسير البيضاوي 1/118 .
76) سورة آل عمران /177 .
77) تفسير الطبري 3/526 ، زاد المسير 1/508 .
78) تفسير ابن كثير 1/573.
79) سورة آل عمران /178 .
80) سورة آل عمران / 198 .
81) تفسير القرطبي 4/278 ، ينظر : فتح القدير 1/91.
82) تفسير الطبري 3/527 .
83) تفسير البيضاوي 1/119 .
84) تفسير أبي السعود 2/118 ، ينظر : فتح القدير 1/91 .
85) سورة آل عمران /179
86) ينظر تفسير الطبري 3/528 ، تفسير القرطبي 4/280.
87) تفسير الطبري 3/528 ، ينظر: تفسير الجلالين 1/91.
88) الوجيز 1/245 ، تفسير القرطبي 4/280 .
89) تفسير القرطبي 4/280 .
90) تفسير البيضاوي 1/121 .
91) تفسير الطبري 3/528.
92) تفسير القرطبي 4/280 .
93) تفسير الطبري 3/528 .

المصادر والمراجع

القران الكريم .
1) أحكام أهل الذمة . تأليف أبو عبد الله الزرعي الدمشقي ، تحقيق يوسف احمد البكري

، دار ابن حزم _ الدمام الطبعة الأولى 1997 م

2) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القران الكريم . تأليف أبي السعود محمد بن محمد العمادي ، دار إحياء التراث العربي _ بيروت .

3) أسرار التنزيل وحقائق التأويل المعروف ((بتفسير البغوي)) .تأليف الإمام البغوي ، تحقيق عبد الرحمن العك ، دار المعرفة _ بيروت

4) أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف ((بتفسير البيضاوي)) تأليف . الإمام البيضاوي ، دار الفكر _ بيروت

5) تاج العروس من جواهر القاموس . تأليف محمد بن مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق مجموعة من المحققين _ دار الهداية .

6) تفسير الجلالين . تأليف جلال الدين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن السيوطي دار الحديث _ القاهرة الطبعة الأولى .

7) تفسير القران العظيم . تأليف إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، دار الفكر _ بيروت 1401 هـ .

8) تفسير النسفي . تأليف الإمام الجليل أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي .

9) جامع البيان عن تأويل آي القران . تأليف الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن خالد أبو جعفر الطبري دار الفكر _ بيروت 1405 هـ .

10)الجامع الصحيح (صحيح البخاري) . تأليف محمد بن إسماعيل أبي عبد الله البخاري ، دار ابن كثير _ اليمامة _ بيروت 1407 هـ _1987 م .

11)الجامع لأحكام القران . تأليف أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، دار الشعب_ القاهرة .

12)روح المعاني في تفسير القران الكريم والسبع المثاني . تأليف الإمام العلامة أبي الفضل شهاب الدين الالوسي البغدادي ، دار إحياء التراث العربي _ بيروت .

13)الذخيرة . تأليف شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي ، تحقيق محمد حجي ، دار الغرب_بيروت 1994 م

14)زاد المسير في علم التفسير . تأليف عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ، المكتب الإسلامي _ بيروت الطبعة الثالثة 1404 هـ .
15)السنن الكبرى (سنن النسائي) . تأليف احمد بن شعيب أبي عبد الرحمن النسائي ، دار الكتب العلمية _ بيروت الطبعة الأولى 1411 هـ _ 1991 م .
16)صحيح مسلم . تأليف مسلم بن الحجاج الحسيني القشيري النيسابوري ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار احياء التراث العربي _ بيروت .
17)عمدة القاري شرح صحيح البخاري . تأليف بدر الدين محمد بن محمود العيني ، دار إحياء التراث العربي _ بيروت .
18)فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير . تأليف الأمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني _ دار الفكر _ بيروت .
19)الفهرست الموضوعي لآيات القران الكريم . محمد مصطفى محمد ،مطبعة الخلود _ بغداد الطبعة الثالثة 1404 هـ _ 1984 م .
20)القاموس المحيط . تأليف محمد بن يعقوب الفيروز أبادي ، مؤسسة الرسالة _ بيروت .
21)الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل . تأليف الأمام أبي القاسم محمد بن عمر الزمخشري الخوارزمي ، تحقيق عبد الرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي _ بيروت
22)لسان العرب . تأليف محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري ، دار صادر _ بيروت الطبعة الأولى .
23)المصباح المنير في غريب الشرح الكبير . تأليف احمد بن محمد بن علي المقري الفيومي ، المكتبة العلمية _ بيروت
24)مفاتيح الغيب المعروف ((بالتفسير الكبير)) . تأليف فخر الدين الرازي ، دار الكتب العلمية _ بيروت 1221 هـ _ 2000 م
25)المعجم المفهرس لألفاظ القران الكريم . تأليف محمد فؤاد عبد الباقي ، دار

مطابع الشعب .
26)المعجم الوسيط . تأليف ابراهيم مصطفى _ احمد الزيات _ حامد عبد القادر _ محمد النجار ، تحقيق مجمع اللغة العربية ، دار الدعوة
27)الوجيز في تفسير الكتاب العزيز . تأليف علي بن احمد الواحدي ، دار القلم _ الدار الشامية_ دمشق الطبعة الأولى 1415 هـ .